دروس من قصة أصحاب السبت في القرآن

كتبه غريب بتاريخ السبت ٢٦ رمضان ١٤٤٢

عندما نقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ وَلَقَد عَلِمتُمُ الَّذينَ اعتَدَوا مِنكُم فِي السَّبتِ فَقُلنا لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ۝فَجَعَلناها نَكالًا لِما بَينَ يَدَيها وَما خَلفَها وَمَوعِظَةً لِلمُتَّقينَ ﴾

[البقرة: ٦٥-٦٦]

فإننا نتشوق لمعرفة قصة الذين اعتدوا في السبت, وذلك لكون ربنا سبحانه جعلها موعظة للمتقين.

والمتقون يبحثون دوما عما يقربهم اللّه إلى عز وجل, ومن أهم ذلك المواعظ, والتي من أهمها قصص القرآن.

فقصص القرآن, قصص حقيقية, تجسد لنا, صورا حية من الإيمان, يتجلى واقعا في حياة المؤمنين, كما تجسد لنا الكفر في صوره الواقعية, قال ربنا عز وجل:

﴿ لَقَد كانَ في قَصَصِهِم عِبرَةٌ لِأُولِي الأَلبابِ ما كانَ حَديثًا يُفتَرى وَلكِن تَصديقَ الَّذي بَينَ يَدَيهِ وَتَفصيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحمَةً لِقَومٍ يُؤمِنونَ ﴾

[يوسف: ١١١]

ومن تلك القصص التي تجسد نوعا من أنواع الكفر الذي ينتشر بين مدعي الإيمان, قصة أصحاب السبت التي قص اللّه علينا في قوله:

﴿ وَاسأَلهُم عَنِ القَريَةِ الَّتي كانَت حاضِرَةَ البَحرِ إِذ يَعدونَ فِي السَّبتِ إِذ تَأتيهِم حيتانُهُم يَومَ سَبتِهِم شُرَّعًا وَيَومَ لا يَسبِتونَ لا تَأتيهِم كَذلِكَ نَبلوهُم بِما كانوا يَفسُقونَ۝وَإِذ قالَت أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظونَ قَومًا اللَّهُ مُهلِكُهُم أَو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَديدًا قالوا مَعذِرَةً إِلى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقونَ۝فَلَمّا نَسوا ما ذُكِّروا بِهِ

أَنجَينَا الَّذينَ يَنهَونَ عَنِ السّوءِ وَأَخَذنَا الَّذينَ ظَلَموا بِعَذابٍ بَئيسٍ بِما كانوا يَفسُقونَ۝فَلَمّا عَتَوا عَن ما نُهوا عَنهُ قُلنا لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ ›

[الأعراف: ١٦٣-١٦٦]

بين يدي قصة أصحاب السبت

قبل أن نبدأ مدارسة هذه الآيات أود أن أنبه على أمر في غاية الأهمية, وهو أنه عند قراءة قصة أصحاب السبت في كتب التفسير, فإننا نجد الكثير من التفاصيل التي لم تثبت بإسناد صحيح, ولها مفعول سيء جدا, لأنها تشغل القارئ عن استخراج الدروس والعبر من القصة, وتحولها إلى قصة من قصص التسلية.

لذلك سوف نتجنب كل تلك المرويات التي لم تثبت, ونركز على ما ذكر في القرآن من شأن أصحاب السبت ففيه الكفاية والهداية للمؤمنين.

من الثابت أن الله حرم على اليهود العمل يوم السبت, كما نصت على ذلك عدة النصوص, ولذلك قصة أصحاب السبت تتحدث عن قصة يهود اعملوا في السبت وهو محرم وعليهم.

كما أنه من المتقرر أن أصحاب السبت كفروا بفعلتهم يوم السبت, التي مسخهم الله بسببها قردة خاسئين, والعياذ بالله من غضب الله.

جرم أصحاب السبت

ولنبدأ على بركة الله مع قوله سبحانه:

‹ وَاسأَلهُم عَنِ القَريَةِ الَّتي كانَت حاضِرَةَ البَحرِ إِذ يَعدونَ فِي السَّبتِ إِذ تَأتيهِم حيتانُهُم يَومَ سَبتِهِم شُرَّعًا وَيَومَ لا يَسبِتونَ لا تَأتيهِم كَذلِكَ نَبلوهُم بِما كانوا يَفسُقونَ ›

[الأعراف: ١٦٣]

بدأت الآية بقوله:

واسألهم

وهذا السؤال إنما المراد به تنبيه المسؤول على ما سيأتي، لا الاستعلام منه جواب السؤال، لأن اللّه عز وجل سوف يخبرنا من أمرهم، فهو إذاً نوع من التذكير للمخاطب.

فما الذي يريد أن ينبه عليه المخاطب؟

يريد أن ينبه على:

عَنِ القَريَةِ الَّتي كانَت حاضِرَةَ البَحرِ

ما شأنها؟

إِذ يَعدونَ فِي السَّبتِ

ولنقف مع هذا الجزء من الآية مطولا، ولنتأمله.

إن أهل هذه القرية يعتدون في السبت.

كيف يعتدون في السبت؟

يعتدون بعملهم يوم السبت، فيصطادون الحيتان، وهم محرم عليهم العمل يوم السبت.

فكر في معصية أصحاب السبت هذه، العمل يوم السبت .

هل هي من جنس الشرك؟

هل هي من جنس الكفر؟

لا العمل يوم السبت ليس من جنس الكفر ولا الشرك بافتراض أن الكفر والشرك منفصلان.

هل أصحاب السبت يستحلون العمل يوم السبت وينكرون أن اللّٰه حرم العمل يوم السبت؟

لا، فتحريم العمل يوم السبت أمر نزل في التوراة، وهو معروف عندهم، ولذلك ذكر ربنا قول العلماء الذين نهوهم عن الاعتداء يوم السبت كما سوف نرى إن شاء اللّٰه، فالمسألة إذاً ليست مسألة استحلال، فما هي إذاً؟

إن المتأمل لقوله سبحانه:

إِذ يَعدونَ فِي السَّبتِ

يدرك أنها قضية الإصرار على معصية أمر الله عز وجل في عدم العمل يوم السبت, والذي يثبت أن جرمهم هو الإصرار على المعصية, وليس المعصية نفسها استخدامه للفعل المضارع:

يَعدون

ليدل على المواصلة والاستمرار, وليست قضية معصية مرة واحدة فقط, لأنه لم يقل

إذ عدوا في السبت وإنما قال

إِذ يَعدونَ فِي السَّبتِ

ليؤكد على الاستمرار والتمادي في هذا الجرم, رغم موعظة العلماء لهم كما بيّن ربنا عز وجل أنهم وعظوهم في الآية الموالية.

إذاً الدرس الأول: جرم أصحاب السبت هو الإصرار على الصيد يوم السبت, وليس كونهم اصطادوا مرة واحدة.

سبب الجرم

نواصل مع الآية, يقول ربنا عز وجل:

‹ إِذ تَأتيهِم حيتانُهُم يَومَ سَبتِهِم شُرَّعًا وَيَومَ لا يَسبِتونَ لا تَأتيهِم كَذلِكَ نَبلوهُم بِما كانوا يَفسُقونَ›

يوم السبت كانت الحيتان تأتيهم شرعاً والأيام الأخرى التي يخرجون فيها للصيد, لا تأتيهم, وهذا ابتلاء من الله عز وجل, بسبب فسقهم كما أخبر ربنا عز وجل.

عند مناقشة الابتلاء وعلاقته بالإيمان تحدثت عن الترابط الوثيق بين الإيمان والابتلاء بحسب دلالة النصوص, فكلما قوي الإيمان اشتد البلاء.

ولكن في هذه الآية ابتلاء بسبب الفسق, وليس بسبب الإيمان, مما يعني أن الابتلاء ليس دليلا على الإيمان, وهذا هو الدرس الثاني من قصة أصحاب السبت

هذا الدرس في غاية الأهمية، لأنه بالعادة نميل إلى اعتقاد أن من ضحى كثيرا في سبيل قضيته أنه صاحب حق، ولو لم يكن صاحب حق لما صبر.

وهذا غير صحيح دوما، فقد يبتلى المؤمن والكافر، ومن ثم فإن شدة البلاء ليست دليلا على صدق المبتلَى.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

نواصل مع الآيات، ونقرأ:

‹ وَإِذ قالَت أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظونَ قَومًا اللَّهُ مُهلِكُهُم أَو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَديدًا قالوا مَعذِرَةً إِلى رَبِّكُم وَلَعَلَّهُم يَتَّقونَ ›

[الأعراف: ١٦٤]

عندما نتدبر الآيات السابقة، يتضح أن من اصطاد في السبت لم يكن كل أهل القرية، وإنما أغلبهم، وأن هناك قسم لم يصطد في السبت وهو قسمين.

قسم أنكر المنكر، ونهى الناس عن الصيد يوم السبت، وذلك لسببين

الأول هو المعذرة إلى الله من هذه المعصية

ولابد أن نتوقف مع هذه السبب جيدا، فالمعذرة إلى الله تستدعي البراءة من فعل قومهم، وإلا فهم مشتركون معهم بالوزر، إلا لمن أعذره الله وهو الذي لا يستطيع سوى إنكار المنكر بقلبه.

هذه المعنى تأكد في قصة ثمود، حيث أن الله عز وجل عمهم بالعذاب لما ذبح تسعة رهط الناقة، كما أخبر:

‹ وَكانَ فِي المَدينَةِ تِسعَةُ رَهطٍ يُفسِدونَ فِي الأَرضِ وَلا يُصلِحونَ۝قالوا تَقاسَموا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهلَهُ ثُمَّ لَنَقولَنَّ لِوَلِيِّهِ ما شَهِدنا مَهلِكَ أَهلِهِ وَإِنّا لَصادِقونَ۝وَمَكَروا مَكرًا وَمَكَرنا مَكرًا وَهُم لا يَشعُرونَ۝فَانظُر كَيفَ كانَ عاقِبَةُ مَكرِهِم أَنّا دَمَّرناهُم وَقَومَهُم أَجمَعينَ۝فَتِلكَ بُيوتُهُم خاوِيَةً بِما ظَلَموا إِنَّ في ذلِكَ لَآيَةً لِقَومٍ يَعلَمونَ ›

[النمل: ٤٨-٥٢]

فجريمة بقية قوم هود هو عدم إنكار فعلة التسعة, ولذلك لم يكن لهم عذر عند اللّٰه يمنعهم.

هذا يعني أنه ما لم ننهى عن المنكر ليس لنا عذر عند اللّٰه وهذا هو الدرس الثالث.

وعليه فعلينا أن نراجع بقاءنا تحت حكم الكفار, دون الإنكار عليهم, لأنه ليس لنا عذر عند اللّٰه إذا لم ندعوهم إلى الإسلام أو نخرج من سلطانهم كما عرفنا من قبل.

السعي في هداية الناس

السبب الثاني عند من نهى عن الاعتداء يوم السبت هو أن يتقي الناس ويرجعوا عن الصيد يوم السبت الذي حرمه ربهم.

القسم الثاني ممن لم يصطادوا يوم السبت, هم قوم لم ينهوا عن المنكر, وهذه جريمة أخرى, مثلها مثل جريمة أصحاب السبت, فالله أمر بالنهي عن المنكر, كما أمر بعدم العمل يوم السبت

هذا القسم الثاني تمادوا في جريمتهم وهي عدم النهي عن المنكر, فأنكروا على من أنكر المنكر قائلين:

﴿ وَإِذ قالَت أُمَّةٌ مِنهُم لِمَ تَعِظونَ قَومًا اللَّهُ مُهلِكُهُم أَو مُعَذِّبُهُم عَذابًا شَديدًا ﴾

ولذلك هم أيضا مصرين على معصيتهم أمر اللّٰه بإنكار المنكر والعياذ بالله.

تلك هي حال أصحاب السبت ولنبدأ في معرفة الجزاء

جزاء أصحاب السبت

قال ربنا عز وجل

﴿ فَلَمّا نَسوا ما ذُكِّروا بِهِ أَنجَينَا الَّذينَ يَنهَونَ عَنِ السّوءِ وَأَخَذنَا الَّذينَ ظَلَموا بِعَذابٍ بَئيسٍ بِما كانوا يَفسُقونَ ﴾

[الأعراف: ١٦٥]

أخبرنا ربنا عز وجل في هذه الآية بحقيقة أصحاب السبت الذين سيصيبهم العذاب، وهي نسيان ما ذكروا به.

ونسيان ما ذكروا به، تعبير يستخدمه ربنا عز وجل للدلالة على عدم العمل بآياته، أي عدم الإيمان بها، فالإيمان بآيات الله يعني العمل بها كما سبق وعرفنا، وقد شرح الله هذا التعبير في الآية الموالية:

﴿ فَلَمّا عَتَوا عَن ما نُهوا عَنه ﴾

فلما نسوا ما ذكروا به أي لما عتوا عما نهوا عنه، فالآية الموالية فصلت الآية التي قبلها، وذلك بتفصيلها معنى نسيان ما ذكروا به، وتفصيل العذاب البئيس الذي أصاب الظالمين كما سنرى.

أي أن كلا من الفريقين، الذين اصطادوا يوم السبت، والذي لم ينكروا المنكر، نسوا ما ذكروا به من حرمة العمل يوم السبت ومن وجوب إنكار المنكر، أي الكفر ببعض الكتاب والعياذ بالله.

فالذي يصر على معصية أمر الله، إنما هو كافر بأمر الله ذلك الذي عصى، ولذلك هو كافر والعياذ بالله.

بعد أن تقرر هذا، نجى الله الذين ينهون السوء، وأصاب الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون والعياذ بالله والذي هو:

﴿فَلَمّا عَتَوا عَن ما نُهوا عَنهُ قُلنا لَهُم كونوا قِرَدَةً خاسِئينَ﴾

[الأعراف: ١٦٦]

نستفيد من هاتين الآيتين أن نسيان النص هو الكفر به وهو عدم العمل به، وهذا هو الدرس الرابع فحي على العمل.